الماورائية نتيجة لكونه مسيحيا منغمسا انغماسا شديدا بمسائل لاهوتية حول علاقة الخالق بالمخلوق . وهاتان الناحيتان لا تجدان بسهولة صدى في نفس القارىء العربي المسلم أو حتى المسيحي ما لم يكن قد تعرف الى هذه المسائل وتمرس بها . أضف الى ذلك ان رؤياه الشخصية جدا ، مصاغة بأسلوب شخصي جدا ومفردات شخصية جدا أيضا ، لا تجعل من آثاره رائجة وشائعة او سهلة الفهم والتذوق بين القراء . الا انني اعتقد ان العمق والاصالة والاخلاص والشجاعة لدى توفيق كشاعر تحدى التقليد ستجعل منه انسانا معروفا على نطاق واسع ولو متأخرا .

بدأ توفيق ينظم الشعر في اواخر الاربعينات ونشر بعضا من شعره في مجلة «صوت المرأة» التي رأس تحريرها لفترة قصيرة في بيروت . واختار منذ البداية الشعر الحر وسيلة للتعبير عما يتأجج في نفسه . ومنذ البداية كان متمردا لانه عرف ان ما اراد ان يقوله لم يكن ممكنا احتواؤه في الصيغ القديمة . لقد جاء شعره نوعا متطرفا من الشعر العربي الحر الذي أخذ يظهر في الدوائر الادبية العربية في اواخر الاربعينات واوائل الخمسينات ، ذلك ليس فقط لان الشعر الحر رفض كل المفاهيم الكلاسيكية حول الاوزان والقوافي بل أيضا لانه لم يقبل بالعروض الجديد الذي أخذ يشق طريقه في صفوف الشعراء العرب الشبان والذي يعتبر التفعيلة المنفردة الوحدة العروضية الاساسية في الشعر ، ذلك مقابل التفعيلة المتعددة (البحر) في بيت الشعر العربي الكلاسيكي والتغيرات الحديثة التي دخلته . لقد كان شعر توفيق متحررا من جميع الاشكال الشعرية السابقة وخارجا على الوزن والقافية . لقد جاء شعره حرا ومنسابا ، ومتموجا رقراقا ، وغزيرا جارفا ، منسجما مع انسجام وتناغم الفكرة التي تنساب مع الكلمات التي تحملها محدثة جرسا موسيقيا جميل الايقاع . ان توفيق لا يعترف في شعره الا بذبذبات الجملة المنسابة مع نبض الفكرة .

القصيدة لدى توفيق هي كليا تعبير حر عن التجربة الانسانية ، هي تعبير يحمله الشاعر الى القارىء لا من أجل ان يتحسس التجربة بل بصورة رئيسية من أجل ان ينفث الشاعر قوة داخلية احدثت ألما في نفسه فأحس به وكأنه شحنة كهربائية تزداد قوة وتزيده ألما بازدياد قوتها وتزيده في أثناء انطلاقها خلقا وابداعا شعريا . من الواضح ان مفهوم الشعر هذا لم يكن ليقبل قيود العروض التقليدية لانه لم يرض ان يكون مقيدا وملجما ويفقد بالتالي طبيعته . ان مفهوم الشعر هذا آمن بحرية الشاعر حرية تامة في التعبير عن رؤياه الذاتية وعالمه الخاص بلغة عربية معبرة جدا عن ذلك . لقد نظم قليلون من الشعراء شعرهم مثله في ضوء هذا المفهوم ومنهم جبرا ابراهيم جبرا وانسي الحاج ومحمد الماغوط ثم ادونيس . ان غالبية «أصحاب الشعر الحر» الاخرين اختاروا الاحتفاظ بالتفعيلة في نظم شعرهم كما احتفظوا أحيانا بنوع من القافية ، وانغمسوا انغماسا عميقا في شؤون امتهم العربية الاجتماعية ــ السياسية عندما كانت الامة العربية تمر في مرحلة مضطربة اضطرابا عظيما بشأن التغيير وأزمة الهوية في منتصف القرن . وقد كان شعرهم ، الذي تعرض لهجوم العناصر المحافظة في المجتمع ، ملتزما بقضية الجماهير ومتبنيا مواقف ايديولوجية ماركسية او متمسكا بمبادىء الواقعية الاشتراكية .

أما توفيق صايغ فلم يكن ملتزما الا برؤياه الشخصية ولم يتمسك بغير مبدأ الحرية الفردية في تعبير جمالي . ومن هذه الناحية يمكن اعتباره من أكثر المتمردين تطرفا في الشعر العربي الحديث ، ولذلك قد يكون واحدا من العرب القلائل الذين فهموا معنى « الحديث » وليس فقط معنى « المعاصر » في مجال الابداع الفني في القرن العشرين(٢) .